

الرسول وآل بيته الكرام في ديوان السيد صادق الفحام

الأستاذ الدكتور

حسن عبد عودة الخاقاني

جامعة الكوفة - كلية الآداب

المقدمة

وسمت الدراسات التاريخية الحقبة الواقعة بين سقوط بغداد في سنة ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨م والنهضة الحديثة التي بدأت مع اطلالة القرن العشرين بسمات الظلام والتخلف والانحطاط فسمتها بعصر الانحطاط ، والحقبة المظلمة ، او القرون المتأخرة في أحسن تقدير ، ولا ريب في أن أسبابا موضوعية واضحة تؤيد هذه التسميات وتعضدها ، لكن البحث والتنقيب في دواوين شعراء هذه الحقبة يزيل جانبا كبيرا من تلك التسميات والسماح .

إن كثيرا من الدارسين قد توافقوا على تلك الاوصاف وتسلموا عليها اذ يسلمها السابق لللاحق وكأنها من المسلّمات التي لا تقبل جدلا او نقاشا فهي تجري على سبيل التعميم والحكم المطلق ، وهذا ما لا يقبله المنطق النقدي الدقيق المستند الى تفكير موضوعي يستقرىء نتاج تلك الحقبة ويفحص كل معطياتها لاستخراج حكم دقيق بشأنها يرفع عنها شيئا من غلالة الظلم الذي أحاق بها .

وإذا كان من الواضح ان الشعر العربي قد تراجع تراجعا كبيرا وخفت بريقه عن العصور السابقة ، ولم نعد نجد قمما أدبية كالتي وجدناها من قبل ، وكل هذا له اسبابه الموضوعية المعروفة ، فلا يعني هذا أن نتقبل الاطلاق العام في الحكم ، ولا يعني غياب الزوايا الثقافية الاصيلية التي ظلت محتفظة بأريج الماضي السعيد او الذهبي - كما يصفه المؤرخون اعتباطا - ومن تلك الزوايا الخبيئة مدينة النجف الاشرف التي ظلت تستمد من الماضي وتسلمه للحاضر مكتنزا بجلال الفصاحة والرصانة ، ولا سيما ذلك الشعر الذي اختص به منشؤه الرسول الكريم وآل بيته الكرام (عليه السلام) إذ يكتسب هذا الشعر رفعة وجلاله من رفعة مقام هؤلاء وجلالهم ، وهذا ما يبدو واضحا في الدواوين

الكثيرة التي ازدحمت بها رفوف المكتبات ، وازدحمت هي بتلك القصائد الرزنية الرصينة من حيث البناء والأداء ، وحضور مجمل مقومات العطاء الشعري الموفق .
إن دراسة هذه الدواوين الكثيرة ، والموسوعات الكبيرة التي أرخت للشعر والشعراء في العراق في تلك العصور جديرة أن تغير نظرة المؤرخين ودارسي الأدب وتوقفهم على الحقيقة التي غطت عليها الأحكام المرسلّة من دون تأنّ ، أو استقراء دقيق ، وتظهر كمّاً كبيراً من الشعر الرصين الذي يدعو الدارسين الى دراسته من جديد على هدي رؤية جديدة ومنهج جديد ويعيد لشعرائه نصابهم المستلب فيأخذوا مكانهم الذي يستحقونه ، فمن مثل السيد حيدر الحلبي مثلاً فصاحةً وجزالةً وأسرَ معنى وقوةً تركيباً ؟ إنه يعيد الديباجة العربية ناصعة في شعره الذي يجاري - إن لم أقلّ يتفوّق على - أرفع ما في الشعر العربي من نماذج خالدة ، ومن يجد مثل ذلك السحر في ديوان السيد جعفر الحلبي المسمّى : سجع البابل وسحر بابل ، أو شعر السيد رضا الهندي صاحب الكوثريّة ، وغيرهم كثير ، وإذا كنّا لا ننفي تسلّل الوهن الى بعض نماذج هؤلاء أو غيرهم بحكم رتابة العصر، وقلة الحركة فيه فإن هذا لا يعني ان كل شعرهم هو كذلك قطعاً .

واني أرى إنّ شعر السيد صادق الفحام يجري عليه ما جرى على هؤلاء ، فالمتفحص لديوانه يجد فيه من النماذج الشعرية والفنون الأدبية التي تجاري القصيدة العربية الرفيعة ، بل هو يجري في القصيدة من فنون التنويع ما يندر ان نجده شائعاً لدى غيره ، فهو يستعمل أسلوب التكرار منوعاً ، وتقسيم القصيدة على شخصيات تنطق فيها ، فيعطي لكل منها صوته الخاص المميز ، ويدع الحوار يجري بين الشخصيات التي يعرضها في قصيدته فيأخذ كل حقه من الظهور والبيان وكأنه في عمل مسرحي .

ولا أدري لم تأخر ظهور ديوان الشاعر محققاً حتى العام ٢٠١١ حين انبرى له السيد مضر سليمان الحلبي فحققه تحقيقاً علمياً موفقاً ، وعلى هذه النسخة اعتمدت في بحثي الذي أسميته (الرسول وآل بيته الكرام في ديوان السيد صادق الفحام) لأقف فيه على جملة القصائد التي ضمّنها في باب مديح الرسول وآل بيته ورثائهم محاولاً استخلاص الخصائص العامة لهذه القصائد التي وجدتها تتجلى في أنماط بناء القصيدة، والتكرار ، واستنهاض الامام المهدي وغيرها ، ولم أشأ التعمّق في الدراسة العلمية الفاحصة لأنني

أعتقد إن في الديوان حاجة الى دراسة علمية موسعة تفي ما فيه من جوانب مختلفة لغنى هذا الديوان فنيا فقد كان صاحبه من المقدمين في حفظ شوارد اللغة العربية ، المطلقين على أسرارها معجما وأدبا .

أرجو أن يتاح لهذا الديوان من يتصدى لدراسته دراسة علمية منهجية ، وأنتدب طالبي العلم المجدين من طلبة الدراسات العليا للتصدي لهذه المهمة ففيها نفع وخير للعلم وأهله .. والله الموفق .

استهلال :

أخذ النبي وآل بيته الأطهار(عليهم السلام) مكانة رفيعة في نفوس المسلمين وقلوبهم ، وصار حبه مما يتقرب به المؤمن المخلص ، وقد فرض الله حبه وسيلة في التقرب إليه ، وجعل الصلاة عليهم مما يتم الصلاة المفروضة .

وقد كان النبي الكريم (ﷺ) وآل بيته (عليهم السلام) هم المثل الأعلى الذي جعله الله للناس مثابة يثوبون إليها إذا اختلطت عليهم أمور دينهم ودنياهم ، ومنار هداية يهتدون بها إذا اظلمت عليهم دياجير الفتن .

أما ما لاقاه أهل هذا البيت الكريم من عنّت وظلم وفجائع فقد كانت مثيرة لعواطف المسلمين حتى لم يخل قلب من ذكر لها وتعطف عليها ، ولا شأن لنا بأولئك الضالين الذين نصبوا العداء لأهل هذا البيت (عليهم السلام) وإن ادّعوا الاسلام ، فهم امتداد لعرق قديم نصب العداوة لرسول الله (ﷺ) فكذبوه وحاربوه وأذاقوه مر العذاب .

وكان الشعراء في كل زمان هم اللسان الناطق بما يتلجلج في قلوب المسلمين ونفوسهم الخيرة ، فعبروا عن ذلك بشعرهم الذي ازدحمت به الموسوعات الضخمة وهي تمتد عبر تاريخ طويل يبدأ مع بدء دعوة الرسول (ﷺ) في مكة ولا ينتهي حتى قيام الساعة ، هكذا أراد الله نشر فضائل هذا البيت الكريم إذ أراد له أن يرفع فرفع ذكره على لسان هؤلاء وغيرهم ، حتى لا نكاد نجد ديوان شاعر يخلو من هذا الذكر الشريف مهما كان ذلك الشاعر موعلا في الانكباب على حب الدنيا وملذاتها ، او كان من ناصبي العداوة لهم فهو يذكرهم أيضا وإن كان على سبيله الذي اختاره .

وإذا شئنا أن نقف عند القرن الثاني عشر الهجري ، وهو من القرون التي أدرجها الدارسون في ظل ما دعي بالحقبة المظلمة لوجدنا أنوار بيت النبوة تسطع في أقوال

الشعراء ، ولم تخفت ، ولم يتسلل إليها الوهن كما ادعى بعض النقدة والدارسين ، فذكر آل البيت (عليه السلام) كان على مر العصور هو القوة الخفية التي تحرك أوتار آلة الشعر في نفوس الناس فتصدح نغماتها العذاب ، ويتداول أمرها الشعراء كابراً عن كابر ، فهذا الذكر لم ينقطع يوماً ، ولم يخفت له صوت ، وكيف يكون ذلك وقد أراد الله له أن يدوم على مر العصور واختلاف الأزمان ، ونريد أن نقف في بحثنا الموجز هذا عند أحد هؤلاء الشعراء وهو السيد صادق الفحام لنستجلي مظاهر ذكره للنبي وآل بيته الكرام في ديوانه .

التعريف بالشاعر :

هو أبو النجاة السيد صادق الحسيني الأعرجي الحلبي النجفي المعروف بالفحام بن علي بن الحسن بن هاشم بن شرف الدين بن نصر الله بن محسن الكبير بن ناصر بن منصور بن عماد الدين بن علي بن محمد بن عمّار بن الفضل بن محمد الصالح بن أبي عباس أحمد البُن بن أبي الحسين محمد الأشتر بن عبيد الله الثالث بن أبي الحسن علي المحدث بن عبيد الله الثاني بن علي الصالح بن عبيد الله الأعرج بن الحسين الأصغر بن الإمام السجاد بن الحسين بن علي بن أبي طالب .

ولد في سنة ١١٢٤هـ في قرية (الحُصَيْن) وهي إحدى قرى مدينة الحلة ، وكان اسمها القديم (حصن سامة) وبهذا الاسم ذكرها الشاعر في بعض قوله ٢:

ولي جسد في حصن سامة موثق وقلب بأكناف الغري رهين
وهي من القرى التي قاومت الإنكليز في ثورة العشرين ولها مواقف مشهودة ، وأغلب سكانها من عشيرة الشاعر الذي ما إن شعر في نفسه حب الاستزادة من العلم حتى هاجر الى مدينة العلم النجف الاشرف فأكب على المطالعة والدرس حتى حاز لنفسه مكانة رفيعة بين العلماء ، ومقاماً محموداً بين الأدباء إذ حفظ كثيراً من شوارد اللغة ، فقد درس على أفاضل العلماء في زمانه وهم السيد محمد المهدي الطباطبائي المتوفى سنة ١٢٠٠ هـ ، والشيخ خضر الجناحي (١١٠٩ - ١١٨٠ هـ) والد الشيخ جعفر الكبير المتوفى سنة ١٢٢٧ هـ صاحب كتاب (كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء) وهو الذي يعد من أبرز تلامذة السيد صادق الفحام مع الشاعر الشيخ محمد رضا النحوي المتوفى سنة ١٢٢٦ هـ .

توفي السيد صادق الفحام سنة ١٢٠٥ هـ ودفن في مدينة النجف الأشرف وقد رثاه الشعراء وأرخوا وفاته على عادة الأدباء في ذلك الزمان مخلفاً وراءه مجموعة من الآثار منها شروح على بعض الكتب كشرح شرائع الاسلام، وشرح شواهد قطر الندى، وشرح شواهد ابن الناظم وغيرها مما ذكرته المصادر المختصة ٣ .

شعره ومكانته بين شعراء عصره :

أخذ السيد صادق الفحام مكان الصدارة بين شعراء عصره فهو مقدم فيهم إذ كان أستاذا لبعض مشهورهم ، وهو مستودع لغة العرب ومعارفها الأدبية ، وتظهر رفعة مقامه من اشتراكه في معركة الخميس الأدبية المشهورة ٤ وهي التي دارت بين أقطاب ذلك العصر كالشيخ جعفر كاشف الغطاء ، والشيخ حسين نجف ١١٥٩ - ١٢٥١ هـ ، والشيخ علي زين الدين المتوفى سنة ١٢١٥ هـ ، والسيد أحمد العطار ، والشيخ محمد رضا النحوي وأضرابهم .

ولم تكن المكانة لمقامه العلمي وحده وإنما جاءت تقديراً لمقامه الأدبي أيضاً ، إذ كان شعره يعد في الطبقة الأولى ، ومن يقلّب محتوى ديوانه الذي جاء في أكثر من ٤٠٠ صفحة يجده حاوياً لمختلف أغراض الشعر وفنونه ، وقد برع فيها جميعاً وفاق فيها سواء ، ولعلّ تفوقه يبدو في مجال التاريخ الشعري الذي يدل بلا ريب على درجة ذكائه وقدرته في التصرف في صنعة التاريخ مهما تزاومت أرقامه ، فهو يصوغ التاريخ الواحد في جمل عدة ، مختلفة ، وهذا من دلائل قدرته في الصنعة ٥ .

أمّا السمات العامة لشعره فهي لا تكاد تخرج عما درج عليه شعراء العصر وإن فاقهم في جزالة لغته ، وقوة تركيب جملته ، مع التفنن والقدرة في التصرف بالكلام على حسب المقام ، وسيظهر مزيد من هذه السمات في دراستنا لشعره في الرسول (ﷺ) وآل بيته وهو مدار بحثنا هذا .

قصائده في مدح الرسول وآل بيته وراثتهم :

اعتاد الشعراء أن يجعلوا أول باب من دواوينهم في مديح آل البيت وراثتهم وهذا ما جرى عليه السيد الفحام أيضاً ، فوقع ذلك بين الصفحتين : ٣٩ - ٩٨ من ديوانه وهو من الأبواب الكبيرة في الديوان قياساً إلى بقية أبوابه المقسمة بحسب الأغراض وهذا

دليل تعلق الشاعر بحب آل البيت واهتمامه بهم ، وقد بلغت قصائده في هذا الباب أربع عشرة قصيدة ، ومقطوعة واحدة من خمسة أبيات ، أما قصائده فأقصرها في عشرة أبيات ، وأطولها في مئة وأربعة وعشرين بيتا ، ومجموع أبيات شعره في الرسول وآل بيته بلغ ست مئة وستين بيتا على التقريب لا القطع ، اعتمادا على ما أورده السيد محقق الديوان ذلك بأننا لا نشك في ضياع شيء من شعر الشاعر لطول المدة ، او عدم التسجيل ، او تفاوت الروايات باختلاف النسخ وهي ثلاث ، لكن مرجعنا هو هذه النسخة المحققة التي أخرجت للتداول .

وقد تنوعت هذه القصائد بين غرضي المدح والرثاء ، ويمكن عرضها على النحو الآتي :

- مدح الرسول (ﷺ) : ثلاث قصائد .
- مدح الامام علي (عليه السلام) : أربع قصائد ومقطوعة واحدة ٦ .
- رثاء الإمام الحسين (عليه السلام) : ثلاث قصائد .
- مدح الإمامين موسى الكاظم ومحمد الجواد عليهما السلام : قصيدتان .
- مدح الإمامين الهادي والعسكري عليهما السلام : قصيدتان .

الخصائص العامة لهذه القصائد :

شملت قصائد السيد الفحام في هذا الباب على جملة من الخصائص التي يمكن الوقوف لدراستها على وجه الإيجاز لا التفصيل في نقاط هي :

بناء القصيدة : يمكن دراسة نمط البناء في قصائد السيد الفحام بتقسيمها على نمطين هما :

أ - نمط البناء المركب : ونعني به النمط الذي يستوفي عناصر البناء التام للقصيدة العربية من جهة ، ويحوي على أغراض أخرى إلى جانب الغرض الرئيس فيها وتكون القصيدة نتيجة ذلك طويلة أيضا ، ومثال هذا النمط يظهر في القصيدة الدالية ٧ التي رثى بها الامام الحسين (عليه السلام) لأنها تامة البناء ، وأطول قصائد هذا الباب ، وهي تتكون من الاقسام الآتية :

المقدمة الطليعة : ويبدأ فيها بمخاطبة الحادي ، ثم الوقوف على الأطلال الدوارس وفيها من الآثار التي خلفها الأحبة الراحلون ، وفي هذا إشارة الى (الرحلة) ، ولكنها رحلة الأحباب وليس رحلة الشاعر ، لأنه يشير الى رحلة الشاعر بإحدى لوازمها وهي ناقته الوجناء فهو لا يريد أن يلتفت الا للديار او أطلالها فيستغرق فيها الخطاب الذي كان وسيلة غير مباشرة في وصف ما جرى على آل النبي في كربلاء ، لذا يستغرق منه هذا المقطع من البناء ٣٢ بيتا توصل في النهاية الى كربلاء وهي المقصود الأول من خطاب الديار ورسومها .

الغرض الرئيس : الغرض الرئيس هو الرثاء ولذلك جعل خطابه للطلول حزينا يتخذ سمة الرثاء لا الذكرى كما هو الشأن في قصائد المديح او الغزل ، لذا ينتقل من خطاب الطلول الى خطاب كربلاء في بيتين ليمثل هذا تخلصاً الى غرضه الرئيس وهو الرثاء الذي يستغرق الحصة الكبرى من القصيدة فيستمر حتى البيت الثالث بعد المئة .

الختام : اعتاد الشعراء ختام قصائدهم - ولا سيما في الرثاء - بأبيات من الحكمة تستجمع فكرة تساعد على السلوان والرضا بالقدر ، ولكن السيد الفحام يختم قصيدته باستنهاض الامام الحجة عجل الله فرجه ، وهو نهج درجت عليه القصيدة الحسينية خاصة .

ويختار السيد الفحام نمط بناء مركب ، ولكن بعناصر مختلفة ، وذلك في قصيدته ٨ التي يمدح بها الرسول (ﷺ) إذ يبدؤها بالحماسة الفردية ٩ التي يجعل حسن التخلص منها الفخر بآبائه الكرام وصولاً الى النبي فيفتح باب غرضه الرئيس وهو المديح عند البيت الثالث عشر ويستمر به حتى البيت الثمانين لينتقل في البيت الذي يليه الى نفسه التي تطلب الشفاعة من الرسول (ﷺ) ثم يختم بالسلام على الرسول (ﷺ) في البيت الثالث والتسعين .

ويظهر ضمن هذا البناء نمط جعل فيه الشاعر طموح النفس والشكوى من الزمان الذي يعاندها مقدمة لقصيدته ١٠ التي يمدح فيها الإمام علياً (عليه السلام) فيستغرق ذلك منه ثمانية عشر بيتا يتخلص بعدها الى مدح الامام في البيت التاسع عشر وهو قوله :

وما رهبة النفس التي استظلت بظلمها وحامي الحمى فيها علي إمامها
اذ يدخل الى غرضه الرئيس وهو المدح حتى البيت السبعين الذي يبدأ جزء
جديدا من البناء يلتفت فيه الشاعر الى نفسه ، والى قصيدته التي يروم بها الشفاعة
وذلك في عشرة أبيات .

وتتخذ الشكوى اتجاهها آخر في قصيدته التي يمدح بها أمير المؤمنين إذ يرجو بها
الامام علياً (عليه السلام) بكونها شكوى من ذنوب النفس التي قرب منها أجلها ، وهي
مقدمة مناسبة لغرض القصيدة التي يبدو انها منظومة في أخريات حياة الشاعر .
ويرد لدى الشاعر نمط جعل له مقدمة مبنية بإسلوب النفي ، ولذلك أستخدم
عليها ب (المقدمة النافية) كما هو الحال في القصيدة التي يرثي بها الامام الحسين
(عليه السلام) اذ يبدأ بالاستفهام :

ما لعيني تجود بالهملان وفؤادي يزيد بالخفقان
فيعدد في الإجابة أسبابا محتملة لينفيها جميعا ، ثم يضرب عن كل هذا في البيت
الثامن :

بل شجاني ذكر (الحسين) قتيلاً فعراني من الأسى ما عراني
لينطلق منه الى عرض المصيبة التي جرت في كربلاء من البيت التاسع الى البيت
التاسع والستين الذي يخرج به من الرثاء الى خطاب آل البيت في طلب الشفاعة وهو
ختام القصيدة ايضا .

نستخلص من البناء المركب أربعة انواع من المقدمات هي :

المقدمة الطللية - المقدمة الحماسية - المقدمة الشاكية - المقدمة النافية .

أما الختام فكان منوعاً أيضاً ولكنه يكاد يجتمع عند نماذج متوافقة تقريباً حين
يلتفت الشاعر الى نفسه ، او الى انجازه الشعري الذي يأمل به نجاة النفس .

ب - البناء البسيط : ونعني به بناء القصيدة التي اقتصرت على غرض واحد يعرضه
الشاعر دفعة واحدة من دون مقدمة تقليدية ، ومن ذلك قصيدته ١١ التي نظمها في
رحلته الى الحج وقد بدأها بقوله :

الحمد لله زرنا المصطفى فصفا لنا السرور وزايلنا الكدورات

وكذلك قصيدته ١٢ في مدح الإمام علي (عليه السلام) فقد بدأها بقوله :

أبا السادة الغرّ الكرام ومن له الميث في الأجداث والذئب
وإذا كان قربه مكانياً من الإمام قد دفع بخطابه الى استعمال أسلوب النداء
للقريب كما في هذه القصيدة التي تجري على هذا النسق ، فإن رحلته الى بغداد -
حيث الإمامان موسى الكاظم ومحمد الجواد (عليهما السلام) ، وسامراء حيث الإمامان
العسكريان - قد أوجبت تغيير أسلوب الخطاب فاستعمل الإشارة إلى الرحلة وإن
جاءت موجزة كما في القصيدة ١٣ التي مدح بها الإمامين الكاظمين فقد بدأها
بقوله:

أرى العلمين ب(الزوراء) قد لاحا فعجّ بالعيس واغتشم الفلاحا
وفي القصيدة ١٤ التي مدح بها الامامين العسكريين التي بدأها بقوله :
أترى العيس بعد طي القفار وارتعاء الأنجاد والأغوار
فهو في القصيدتين يتخذ من راحلته ، ورحلته ، مدخلاً لبلوغ غرضه في المدح .

لغته :

تندرج لغة السيد الفحام في سياق عصره المعروف باحترام التراث والاستمداد
منه ، وهي من جانب آخر تستجيب لمعطيات البيئة الدينية التي نشأ فيها وصار أحد
رموزها ، لذا اتسمت لغته بسمات فنية وموضوعية عدة منها :

- **التكرار:** هو إعادة ذكر ما ذكر لفظاً أو معنى ، وقد يكون لغاية كالتوكيد مثلاً ، وقد
يكون من طبع الشاعر وانشداده الى بعض الدوافع الفكرية واللغوية التكوينية ،
ويبدو التكرار سمة واضحة في شعر السيد صادق الفحام وأسلوبه فيه .

وقد يقال بأن التكرار ناتج من هيمنة التقليد على لغة الشاعر التي يستمدّها من
القدمى كما يظهر ذلك في الوقوف على الطلل ، او وصف الناقة ، والمرور على
الديار التي يسميها بأسمائها التي تواتر ذكرها في الشعر العربي ، ولكن الأمر الذي
يجب الاذعان له هو أن الشاعر كان يعيش على وجه الحقيقة لا التقليد بالطريقة
نفسها تقريباً التي عاش فيها سلفه الشاعر القديم ، فهو ما يزال يرتحل الناقة في
أسفاره ، وقد مرت به في طريق رحلته الى الحج مثلاً بالأماكن نفسها التي مر بها
الشاعر القديم ، ولذلك يبدو من المقبول ، بل المتوقع ، أن نجد لدى الشاعر تكراراً
لما سبق أن أورده الشعراء في مجالي اللفظ والمعنى معاً.

أما الشاعر نفسه فقد اتبع هذا الأسلوب في شعره حتى غدا سمة بارزة لديه ، ففي مجال الألفاظ نجد أن الشاعر يكرر كلمات بعينها على مدى أبيات كثيرة في القصيدة الواحدة ، ومن ذلك تكرار كلمة (لهفي) إحدى عشرة مرة في القصيدة ١٥ التي يرثي بها الامام الحسين (عليه السلام) وتكرار كلمة (شمر) في قصيدة ١٦ أخرى في الموضوع نفسه .

أما تكرار الأساليب في القصيدة الواحدة فهو شائع كتكرار الاستفهام والنداء وغيرهما ، وما دام تكرار الألفاظ والأساليب شائعا فلتتوقع نتيجة لذلك وغيره تكرار المعاني في قصائد تدور في مجال محدد وتتجه الى أشخاص محددين ايضا .

- **توظيف السرد :** في الشعر حاجة أصيلة الى الاستعانة بالسرد ولا سيما إذا كان الموضوع الشعري يستمد حوادثه من التاريخ ، وهذا ما يبدو واضحا في قصائد رثاء الامام الحسين (عليه السلام) اذ غالبا ما يتدفق سرد واقعة كربلاء وما جرى فيها على آل البيت في نسغ القصيدة ، ومن ذلك ما نجده في القصيدة ١٧ التي يرثي بها الامام الحسين ، والقصيدة التي سرد فيها وقائع رحلته الى الحج ١٨ .

- **تعدد الأصوات :** يظهر تعدد الأصوات في القصيدة الواحدة نتيجة من نتائج توظيف السرد اذ يفترض السرد وجود عناصر ملازمة كالحديث ، والشخصيات ، والحوار الذي يدور بين هذه الشخصيات وهو ما ينتج الاصوات التي هي ادوات فنية استعملها الشاعر مقتدرا حين يسلم هذه الشخصيات زمام السرد ويجعلها تعبر عن نفسها ومواقفها بضمير المتكلم وهذا ما جعل القصيدة التي حوت قبلا عناصر سردية حاوية ايضا عناصر مسرحية ، وهذا من السمات التي تميز بها هذا الشاعر فالقصيدة ١٩ التي رثي بها الامام الحسين اقتسمتها عدة اصوات تدخل في صراع منها : صوت الامام ، صوت صحبه ، صوت اعدائه ، صوت السيدة زينب ، فضلا عن صوت الشاعر نفسه الذي يمكن ان نسميه (راويا) يروي الاحداث ويدع الاصوات المشاركة تعبر عن نفسها ومواقفها في الرواية الكبيرة التي يدير احداثها بدقة ٢٠ .

- **الاستعانة بمصادر خارجية :** لم يقتصر السيد الفحام في شعره على التعبير الذاتي المحروم من الاستمداد من مصادر نافعة ، ولما كان السيد الفحام رجلا دين ، وعاش

في بيئة دينية ، ويدور هذا الباب من ديوانه في مجال ديني فلنا ان نتوقع حضوراً قويا للمصدر الديني بشقيه القرآني والتاريخي ، فالإشارات الدينية منبثة في القصائد مما يند عن الحصر ، ولو شئنا التمثيل حسب لأشرفنا الى مجموعة من بعض قصائده ٢١ التي يرد فيها الاقتباس من القرآن الكريم في آيات مختلفة اشار اليها السيد محقق الديوان في هوامش التخريج ٢٢.

اما الاستمداد من التاريخ فيبدو واضحاً في سيرة الرسول الكريم (ﷺ) والامام علي (عليه السلام) وابنه الامام الحسين (عليه السلام) فهو يذكر بالحوادث التي جرت في حياة هؤلاء وغيرهم ممن ورد ذكرهم في شعره ، لذا يكثر من ذكر الانبياء وابرز ما جرى في حياتهم ، ويذكر بعض الاماكن والمواقع التاريخية التي شهدت تلك الاحداث ويحيل عليها على سبيل الاشارة احيانا لأن الشعر قائم على الاجمال ولا يسعه التفصيل .

- **الحماسة** : الحماسة والتحمس والتحميس من الاغراض المعروفة في الادب العربي عموماً ، ولكن المفارقة اننا نجد ان الحماسة قد شاعت في دواوين شعراء القرون المتأخرة ولعل هذا قد يستغرب من هؤلاء الشعراء الذين ما خاضوا غمار حرب ولا نزلوا ساحة قتال ، وربما نجد تفسيراً لذلك بحاجة الشاعر الى اثبات نفسه وإشعارها بقيمتها واهميتها في زمن خامل ، واما من الناحية الفنية فنجد في مبدأ التقليد الذي درج عليه الشعراء تفسيراً آخر مقبولا الى حد ما .

ونجد هذه الظاهرة اكثر شيوعاً لدى الشعراء الذين ينتمون الى البيت الهاشمي كما هو الشأن لدى السيد حيدر الحلبي ٢٣ والسيد جعفر الحلبي ٢٤ وقبلهما السيد صادق الفحام وذلك لشعورهم بالتفاوت الكبير بين ماضي البيت الهاشمي وحاضره وهو ما يدفع الشاعر الى ان يثار لمكانته المهدورة باستثارة الهمة عن طريق هذا الشعر الحماسي . افتتح السيد الفحام قصيدته ٢٥ التي يمدح بها الرسول (ﷺ) بمقدمة حماسية وصلها بالفخر بالانتساب الى هذا النسب الشريف ، متخلصاً منه الى مدح الرسول (ﷺ) وهو الغرض الرئيس للقصيدة ، ومن ذلك قوله :

على م وقد جهزت جيش العزائم	أسالم دهرأ ليس بمسالم
وفي م وقد أيقظت ناعس همّتي	أنام وصرف الدهر ليس بنائم

ومثلي لا يغضي على الضيم والأذى
إذا المرء لم يصرف إلى المجد همّه
وإن لم يطر بالحزم في طلب العلى
وما زال طر في طموح بلحظه
واني اذا رمت العلاء فانما
بآبائي الغر الذين سما بهم
اما في قصيدته ٢٦ التي يمدح بها الامام علياً فيقدم الشكوى اولاً ثم يواجهها
بالحماسة التي يمزجها بالفخر ايضا وذلك في قوله:

فتى طبعت أيدي النوائب والنوى
دعته الى خوض المعاطب طائعا
سأبعثها شمّ العرائن لم يكن
يغادرها تجواب كل تنوفة
تُناخ فتلقى بلدة فوق بلدة
إذا عن ما بين البلاد تفاخر
يذلّ أعناق الملائك عزها
فما عرصات المجد إلّا سهوبها
فطوبى لنفس كان موضع رمسها
وما رهبة النفس استظلت بظلها
له عزمة ما أن يفلّ حسامها
أبيّة نفس شطّ عنها مرامها
ليرغمها إلّا قليلا ثغامها
قليل بها الأصوات إلّا بغامها
من الفرض أن يرعى لدينا ذمامها
فما هي إلّا أنفها وسنامها
ويرغم أناف الملوك رغامها
ولا هضبات العز الا اكامها
ثراها وإن أمست عظيما أاثامها
وحامي الحمى فيها (علي) إمامها
الاستنهاض : ونعني به دعوة الإمام المهدي الى النهوض لأخذ الثأر من أعداء آل

البيت ، وتلبية امر الله بأن يملأ الارض عدلا وقسطا بعد ما ملئت ظلما وجورا
٢٧، ونجد ان الاستنهاض قد أصبح جزءاً من قصائد شعراء الرسول وآل بيته ،
وقد يزداد ظهورا في ظل ظروف القهر واليأس فلا يبقى امام الشاعر الا اللجوء
للإمام المنتقد المخلص ، ولنا في ديوان السيد حيدر الحلبي خير مثل لذلك ٢٨ ،
اذ يبدو الاستنهاض سمة مميزة لهذا الشاعر بفعل عوامل القهر والاستبداد التي
فرضها العثمانيون على العراق .

ونجد لدى السيد صادق الفحام قسما من قصيدته ٢٩ التي رثى بها الامام الحسين (عليه السلام) جعله ختاماً لها واستنهاضاً للإمام المهدي ، فهو بعد ما يعرض ما جرى على الامام الحسين في كربلاء لا يجد من يأخذ له الثأر إلا الإمام المهدي لذا يتجه اليه بأسلوب الاستفهام الذي يشعر بعظم المصيبة وعظم الانتظار ايضا ، فيقول :

فمتى ظهور القائم المهدي من	آل الرسول بقيّة الامجاد
السيد السند الامام المقتدى	فرد المكارم واحد الآحاد
وعد الإله المؤمن بنصره	والله ليس بمخلف الميعاد
أمنفس الكربات دعوة راسف	مما دهاه بأعظم الأقياد
عجل فإن الدين اصبح روضة	كرب النزيل وغمة المرتاد
واغبر جانبه وأقلع عنه من	سيل الغمام مراوح ومغادي
فمتى نرى البشرى بيومك أقبلت	وأصوات في افق السماء منادي
ظهر الإمام الأحمدى ابن الامام ال	العسكري بن الامام الهادي

حضور الذات : غالبا ما يحرص الشاعر الفحام على اثبات حضوره في قصائده التي يوجهها الى الرسول وآل بيته الاطهار وكأنه بذلك يريد ان يمهرها بمهره الخاص حفظا لها من الضياع او امكان نسبتها الى غيره ، وقد فعل ذلك بالطرائق الاتية :

- استعمال الخطاب المباشر للممدوح او المرثي بضمير المتكلم الذي يكشف به الشاعر عن حاجته كخطابه الامام المهدي في آخر قصيدته ٣٠ التي رثى بها الامام الحسين فيقول :

مولاي إن صوارمي ولهاذمي	ومغافري وسوابغي وجيادي
وقف عليك ولي رجاء صادق	أن سوف أصرفها بصدق جهاد

وكذلك قوله ٣١ مخاطبا الرسول الكريم (عليه السلام) :

فخذ بيدي من سقطة الجهل سيدي تقل يا رسول الله عشرة نادم
وكن شافعي في يوم لا مال نافعي ولا عمل من غمرة الهول عاصمي

- مدح قصيدته : يحق للشاعر ان يفخر بعمله الذي اجتهد فيه ، ونجد ان السيد الفحام قد جعل خواتيم بعض قصائده مدحا لهذه القصائد نفسها، مقرونا في

اغلب الاحيان برجاء قبولها واستحقاق الشفاعة بها كما نجد ذلك في القصيدة نفسها التي مدح بها الرسول (ﷺ) فيقول :

ودونكها من دون قدرك مدحة سمت قدر نظم عن قريحة ناظم
هي الروضة الغناء فتقت الصبا بأيدي الحيا منها جيوب الكمائم
وغادة حسن قلدها فرائدا بمدحك اوصاف العلا والمكارم
منحتكها مني هدية واثق بحسن قبول بالمكافاة وجازم
وهو يستعمل الطريقة نفسها في ختام القصيدة ٣٢ التي مدح بها الامام عليا فيقول :
فدونكها عذراء يهزأ حسننها بحسن العذارى الناهدات الكواعب
أرجي بها كاسا ييل ببردها غليل ثوى بين الحشا والترائب
وأن ادخل الجنات فيها مخلدا وإن حال جرمي دون نيل مطالبي
ولعل هذا الختام يلخص بصورة جلية الغرض الشريف الذي دفع الشاعر الى النظم ، فهو لا يرجي شيئا من حاجات الدنيا كما هو شأن المادحين وانما يتجه برغبته وحاجاته الى الآخرة فوجد في الرسول وآل بيته الكرام خير شفيع لنيل سؤله هذا .

- ذكر اسمه : يحرص السيد صادق الفحام على ذكر اسمه في ختام قصائده وكأنه يريد أن يثبت ذلك لدى من يخاطب ، وهو يورد اسمه مشفوعا بالرجاء في اغلب الاحيان لأنه يطلب الشفاعة لنفسه وكأنه يريد ان يذكر بهذا الذكر ليستيقن الامر من نفسه اولاً ، ونجد ان هذا الذكر قد اخذ لديه طريقين :

الاول : أن يورّي عن اسمه بشيء ظاهر ، وهذا هو الأملح في الصنعة الشعرية كقوله في ختام قصيدته ٣٣ التي رثى بها الامام الحسين وهو يخاطب الامام المهدي عجل الله فرجه :

مولاي إن صوارمي ولهاذمي ومغافري وسوابغي وجيادي
وقف عليك ولي رجاء صادق أن سوف أصرفها بصدق جهاد
فعسى وليكم سمي رجائه يحظى بعيش رضا او استشهاد
فينال احدى الحسنين وإنها أمنيّة الصادي الى الإبراد
ونجد مثل هذا في قصيدته ٣٤ التي رثى بها الامام الحسين اذ يقول :

يا بني احمد مصابكم اضـ نى فؤادي وهاج حرّ غليلي

نجلكم (صادق) بكم مستجير في غد من عذاب يوم مهول
فكلمة (صادق) هنا تحتل احتمالين معا : الحقيقة ، بانصراف الاسم الى الشاعر
مباشرة ، والتورية ، بالانصراف الى اسم الفاعل الذي يعني التصديق والايمان برسول
الله وآل بيته ، وهذا من جميل الصنعة عند هذا الشاعر ٣٥.

الخاتمة :

ان الشعر فيما يسمى بالحقبة المظلمة ليس ينطبق عليه جميعا اوصاف العقم
والابتذال وضعف التركيب كما ادعى ذلك بعض الدارسين غير المتمعنين ، او الذين
ينطلقون من منطلقات ايديولوجية مضادة لهذا الشعر وأهله محاولين بكل السبل التهوين
من شأنه ، واطلاق الاحكام التعميمية عليه .

ودراسة شعر السيد صادق الفحام وحدها كافية لنقض تلك الاحكام المتعجلة
وتعديلها بما ينسجم وحقيقة هذا العطاء الذي نلمسه واضحا في حرص شعراء تلك
الحقبة على سلامة لغتهم ورفعته ودقتها في احكام الفصاحة والبلاغة فهؤلاء الشعراء
كانوا يتلقون اللغة من منبعها الصافي - القرآن الكريم والحديث الشريف والتراث العربي
الاصيل - ولذلك تجد شعرهم لا يقل منزلة عن اسلافهم وان غلب عليه بعض التقليد.

اكتفى بحثنا بالوقوف عند باب واحد من ابواب ديوان السيد صادق الفحام وهو
مديح الرسول (ﷺ) وآل بيته الكرام ورثائهم وهو باب تقليدي في دواوين اغلب
الشعراء وهو ما يدعونا الى التأكيد بان شعر هؤلاء يمتلك قيمة الفنية والمعنوية التي تؤهله
ليكون مدار دراسات جادة لا تنطلق من مواقف مسبقة لتحفظ بسمتها الموضوعية
اللازمة .

وقد تبين لنا من دراسة هذا الباب وجود انماط من البناء الذي يسير على نهج
القصيدة العربية الاصيلية ، وقد حاز الشاعر لنفسه مجموعة من الصفات التي ميزته منها :
استعمال السرد بطريقة متميزة ، واستعمال التكرار ، وتقسيمه القصيدة على اصوات
سواء عن طريق الحوار بين الشخصيات ام اعطاء زمام السرد للشخصية نفسها لتستوفي
الحديث عن نفسها ، وتأكيده على تسجيل حضوره الذاتي بذكر اسمه بطرائق مختلفة
كالتصريح او التورية .

ان هذه الدراسة الموجزة لهذا الديوان انما تريد ان تستثير الدعوة للتوجه بقوة وعزم نحو مزيد من الدراسات الجادة لإظهار ملامح حقبة طويلة انتجت كمًا كبيرًا من الدواوين التي ظهر بعضها مجموعًا محققًا وما زال بعضه مخطوطًا لا تكاد تصل اليه ايدي القراء الا بصعوبة بالغة او لا تصل احيانا ، وما احرانا ان نكون أولي السبق الى هذا العمل الشريف ، انها دعوة مشفوعة برجاء القبول والعمل المخلص .

ملخص البحث

ان الشعر فيما يسمى بالحقبة المظلمة ليس ينطبق عليه جميعا اوصاف العقم والابتذال وضعف التركيب كما ادعى ذلك بعض الدارسين غير المتمنعين ، او الذين ينطلقون من منطلقات ايديولوجية مضادة لهذا الشعر واهله محاولين بكل السبل التهوين من شأنه ، واطلاق الاحكام التعميمية عليه .

ودراسة شعر السيد صادق الفحام (١١٢٤هـ - ١٢٠٥هـ) وحدها كافية لنقض تلك الاحكام المتعجلة وتعديلها بما ينسجم وحقيقة هذا العطاء الذي نلمسه واضحا في حرص شعراء تلك الحقبة على سلامة لغتهم ورفعته ودقتها في احكام الفصاحة والبلاغة فهؤلاء الشعراء كانوا يتلقون اللغة من منبعها الصافي - القرآن الكريم والحديث الشريف والتراث العربي الاصيل - ولذلك تجد شعرهم لا يقل منزلة عن اسلافهم وان غلب عليه بعض التقليد .

اكتفى بحثنا بالوقوف عند باب واحد من ابواب ديوان السيد صادق الفحام وهو مديح الرسول (ﷺ) وآل بيته الكرام ورثائهم وهو باب تقليدي في دواوين اغلب الشعراء وهو ما يدعونا الى التأكيد بان شعر هؤلاء يمتلك قيمة الفنية والمعنوية التي تؤهله ليكون مدار دراسات جادة لا تنطلق من مواقف مسبقة لتحفظ بسمتها الموضوعية اللازمة .

وقد تبين لنا من دراسة هذا الباب وجود انماط من البناء الذي يسير على نهج القصيدة العربية الاصلية ، وقد حاز الشاعر لنفسه مجموعة من الصفات التي ميزته منها : استعمال السرد بطريقة متميزة ، واستعمال التكرار ، وتقسيمه القصيدة على اصوات سواء عن طريق الحوار بين الشخصيات ام اعطاء زمام السرد للشخصية نفسها لتستوفي

الحديث عن نفسها ، وتأكيده على تسجيل حضوره الذاتي بذكر اسمه بطرائق مختلفة كالتصريح او التورية .

هوامش البحث .

- ١- ظ : تطور الشعر العربي الحديث في العراق : ١٥ .
- ٢- انظر مقدمة المحقق في الديوان : ٧ - ١٢ .
- ٣- انظر مثلاً : اعيان الشيعة : ٧ / ٣٦٠ ، البابليات : ١ / ١٧٨ ، معارف الرجال : ١ / ٣٦٦ وغيرها .
- ٤- ظ المعارك الادبية في النجف : ١٥ - ٢٨ .
- ٥- انظر : ديوانه : ٢٣٧ - ٢٧٧ .
- ٦- توهم السيد محقق الديوان في بيان الممدوح في قصيدة رقم ٩ في ص ٧٥ فأدرجها في مدح الرسول (ﷺ) بينما هي موجهة الى الامام علي (عليه السلام) بدليل قول الشاعر في البيت الاخير : وتغشى اخاك المصطفى ... فقد جعلها تحت عنوان : وقال مادحا له صلوات الله عليه مجنسا ، والضمير ينبغي ان يعود على المقصود في القصيدة السابقة وهو الرسول (ﷺ) ، ولم يلتفت الى هامشه الذي اورد فيه الاشارة الى النسختين : ب و ج قوله : وله في مدح امام المشارق والمغارب امير المؤمنين على ، ثم القصيدة رقم ١٠ وفيها الضمير يعود على الامام ، فكان ينبغي اثبات اسم الامام دون صفته في القصيدة رقم ٩ دفعا للتوهم .
- ٧- الديوان : ٤٩ .
- ٨- الديوان : ٦٧ .
- ٩- ونجد هذا النمط نفسه تقريبا في القصيدة التي يمدح بها الامام علي ، انظر الديوان : ٤١ .
- ١٠- الديوان : ٧٧ .
- ١١- الديوان : ٤٧ .
- ١٢- الديوان : ٧٥ .
- ١٣- الديوان : ٤٨ .
- ١٤- الديوان : ٥٩ .
- ١٥- الديوان : ٤٩ .
- ١٦- الديوان : ٨٤ .
- ١٧- الديوان : ٤٩ ، وكذلك قصيدته في : ٦٤

- ١٨- الديوان : ٤٧ .
- ١٩- الديوان : ٨٤ .
- ٢٠- مجلة ينابيع ، العدد ٤٨ ، مقالة بعنوان : قصيدة السيد صادق الفحام في ابي عبد الله الحسين
، ص ٥٤ .
- ٢١- الديوان : ٤١ ، ٤٨ ، ٥٩ مثلاً .
- ٢٢- ظ : الديوان : ٤٥ ، ٥٩ .
- ٢٣- ظ : ديوان السيد حيدر الحلبي : ٣٥١ - ٣٥٩ .
- ٢٤- ظ : ديوان السيد جعفر الحلبي : ٣٨٦ .
- ٢٥- الديوان : ٦٧ .
- ٢٦- الديوان : ٧٧ .
- ٢٧- ظ : المهدي المنتظر في الشعر العربي الى نهاية العصر العباسي : ١١ - ٢١ .
- ٢٨- انظر بحثي الموسوم ب (الاستنهاض في القصيد الحسينية) المشارك في مؤتمر النجف عاصمة
الثقافة الاسلامية ، النجف ، ٢٠١١
- ٢٩- الديوان : ٤٩ .
- ٣٠- الديوان : ٤٩ .
- ٣١- الديوان : ٦٧ .
- ٣٢- الديوان : ٤١ .
- ٣٣- الديوان : ٤٩ . وكذلك قصيدته في صفحة ٧٧ .
- ٣٤- الديوان : ٦٤ ، ونرى مثل هذا في قصيدته في ٤٩ ، و ٩٣ ايضاً .
- ٣٥- لعل من الطريف ان نذكر ان تورية الشاعر باسمه قد جر عليه اللوم حين بالغ في رفع مقام
شعره ومنزلته حتى رقى به على ابي الطيب المتنبّي في قوله :
- واني نبي الشعر كم لي معجز تجلت به للمبصرين الحقائق
فدع عنك قول ابن الحسين بمعزل وإن هدرت فيهن الشقائق
فكم بين من ياتي به الناس كاذب وكم بين من ياتي به الناس صادق
- فاجابه الشيخ محمد رضا النحوي بقوله :
- ارى بعض من قد جاوز الحد يدعي نبوة شعر والدعاوى شقائق

على المتنبي ظل يفخر والذي تأمل لا تخفى عليه الحقائق
فكم مدح فضل النبوة قبله ولا يدعيها بعد احمد صادق
وينبغي هنا الالتفات الى التورية اللطيفة في قوله : بعد احمد صادق ، اذ ينصرف الاسم الى
النبي الكريم والى ابي الطيب ايضا ، ولكن التورية الأبعد والأهم هي في قوله : يدعي ،
فالاشارة البعيدة هي الى بيت ابي الطيب :
فوا عجا كم يدعي الفضل ناقص ووا اسفا كم يظهر النقص
ويقوي ذلك قوله في العجز : الدعاوى شقائق ، فهذه شقيقة تلك ! فما املح الشعراء وما
اجملهم فهم يمتعون حتى في محاكاتهم !

قائمة المصادر والمراجع

- ❖ أعيان الشيعة ، السيد محسن الامين ت ١٣٧١ هـ ، تحقيق : حسن الامين ، دار التعارف ، ط ٥ ، بيروت ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م .
- ❖ البابليات ، محمد علي اليعقوبي ، مطبعة الزهراء ، ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م .
- ❖ تطور الشعر العربي الحديث في العراق اتجاهات الرؤيا وجماليات النسيج ، د. علي عباس علوان ، منشورات وزارة الاعلام ، بغداد ، ١٩٧٥ .
- ❖ ديوان السيد جعفر الحلي المسمى : سحر بابل وسجع البلابل ، حققه الشيخ : محمد الحسين كاشف الغطاء ، دار الاضواء ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٣ هـ - ١٩٨٣ م .
- ❖ ديوان السيد حيدر الحلي ، تحقيق علي الخاقاني ، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م .
- ❖ ديوان السيد صادق الفحام ، تحقيق : د. مضر سليمان الحلي ، دار الضياء للطباعة ، النجف الاشرف ، ط ١ ، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م .
- ❖ معارف الرجال في تراجم العلماء والادباء ، محمد حرز الدين ، مطبعة الآداب ، النجف الاشرف ، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .

❖ المعارك والخصومات الادبية في العراق في القرون الثلاثة الاخيرة (١٧٠٠-٢٠٠٠) واثرها في الحركة الادبية ، محمد حسن كاظم محيي الدين ، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب - جامعة الكوفة ، ٢٠٠٥.

❖ المهدي المنتظر في الشعر العربي الى نهاية العصر العباسي ، احمد كاظم جواد، رسالة ماجستير ، كلية الآداب - جامعة الكوفة ، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م .

❖ مجلة ينابيع ، مقالة بعنوان : قصيدة السيد صادق الفحام في ابي عبد الله الحسين نص وتحليل د. حسن الخاقاني ، العدد ٤٨ ، ص ٥٤- ٦١ .

❖ المؤتمر العالمي لمشروع النجف عاصمة الثقافة الاسلامية ٢٠١٢ ، بحث بعنوان : الاستنهاض في القصيدة الحسينية ، د. حسن الخاقاني ، جامعة الكوفة والحوزة العلمية في النجف الاشرف ، آذار ٢٠١١.